فى وجوه إعجاز القرآن الكريم ودلالاته

اعلم أن المعجزة أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدى سالم عن المعارضة، وهى إما حسية وإما عقلية ليراها ذو البصائر كما قال الرسول ﷺ: ما من الأنبياء نبى إلا أعطى ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذى أوتيته وحيًا أوحاه الله إلى، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا. "أخرجه البخارى".

أى أن معجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة، وفى كل عصر يظهر ما يدل على صحة دعواه، أى أن معجزة القرآن تشاهد بالبصيرة ولا خلاف بين العقلاء أن كتاب الله معجز لا يقدر عليه أحد أى لا يقدر أحد على معارضته بعد تحديهم بذلك، وأن آيات من آيات الكتاب أمر كاف للدلالة قائم مقام المعجزات، وأن القرآن تحدى أفصح الفصحاء طول السنين فلم يقدروا على أن يأتوا بمثله.

ونادى عليهم باظهار العجز وإعجاز القرآن فقال: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (الإسراء ٨٨).

فحاجتهم إلى التحدى تبعث على الحيلة حتى يتقوا أن يمنعهم من الإقرار الهوى والحمية، وهذا ما حملهم على التصدى للحرب وقتل من عليتهم وأعمامهم وبنى أعمامهم، والقرآن يحتج عليهم صباحًا ومساءًا فيعجزون حتى أن يتكلفوا ذلك طوال ثلاث وعشرين سنة.

ووجه الإعجاز ليس بصرف العرب عن الاتيان بمثله وإنما لاستمرار النظر إلى فصاحته وغرابة أسلوبه مع سلامته من جميع العيوب وترتيب ألفاظه وموافقتها للمعنى من أول القرآن إلى آخره ولا أحد من البشر

يحيط بذلك علمًا.

وللإعجاز ثلاثة أوجه. أحدها يتضمن الأخبار عن الغيب، وذلك مما لا يقدر عليه البشر ولا سبيل إليه.

والوجه الثانى كان معلومًا من حال رسول الله ﷺ أنه لم يكن يعرف شيئًا من كتب المتقدمين وأقاصيصهم وأنبائهم وسيرهم، ثم أتى بجملة ما وقع وحدث من الأمور العظيمة والسير الهامة من حين خلق الله آدم عليه السلام إلى حين مبعثه.

والوجه الثالث أنه بديع النظم عجيب التأليف فى بلاغة متناهية إلى الحد الذى يعلم عجز الخلق عنه. ونظم القرآن خارج عن المعتاد ومباين لأسلوب الخطاب فله أسلوبه الذى يختص به، ويتميز فى تصرفه، فهو لا يتعمل ولا يتصنع فهو ليس من باب السجع ولا فيه شئ منه وكذلك ليس من قبيل الشعر، فهذا تأمله المتأمل تبين بخروج القرآن عن أصناف كلامهم وأساليب خطابهم بخصوصية ترجع إلى جملة القرآن. وهو على كثرته وطوله متناسبًا فى الفصاحة كما وصفه الله تعالى: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ (الزمر ٢٣).

﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ (النساء ٨٢).

فالقرآن يتضمن قصصًا ومواعظ واحتجاج وحكم وأحكام وإعذار وإنذار ووعد ووعيد وتبشير وتخويف وأوصاف وتعليم أخلاق كريمة وشيم رفيعة وسير مأثورة دون أن يقصر عن أى من كل تلك الوجوه، بل هى على حد واحد فى حسن النظم وبديع التأليف والرصف لا تفاوت ولا انحطاط عن المنزلة العلياء ويظهر التفاوت الكثير عند

التكرار وعند اختلاف الأسباب. والقرآن يجعل المختلف كالمؤتلف والمتباين كالمتناسب.

وإعجاز أسلوب القرآن أبلغ دليل على أنه من عند الله ـ جل جلاله ـ وليس من نظم محمد عليه الصلاة والسلام، لقد عاش محمد بين الناس فى قريش بمكة أربعين عامًا قبل أن ينزل عليه وحى السماء، فكيف يتأتى له أن يجئ بما جاء فى الكتاب الكريم من أحوال الأمم السابقة وقصص أنبيائهم، والفرق شاسع بين لغة القرآن الكريم ولغة الحديث الشريف. رغم أن الرسول عليه الصلاة والسلام أوتى جوامع الكلم. عبر القاص عياض يصف بلاغة وفصاحة الرسول ﷺ قائلاً: " فأما فصاحة اللسان وبلاغة القول فقد كان الرسول ﷺ من ذلك بالمحل الأفضل، والموضع الذى لا يجهل، سلامة طبع وبراعة منزع"، وإيجاز مقطع، ونصاعة لفظ، وجزالة قول، وصحة معان، وقلة تكلف، أوتى جوامع الكلم، وخص ببدائع الحكم، وعلم السنة العرب، فكان يخاطب كل أمة بلسانها ويحاورها بلغتها، ويباريها فى منزع بلاغتها، وهذا القرآن الكريم نفسه، هو الذى جعل أحد الأعراب والذى يعرف بفطرته جمال اللغة، وإعجاز البيان.. كما قال أبو عبيدة ـ رجلاً يقرأ: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (الحجر ٩٤) خر ساجدًا قائلاً: سجدت لفصاحة هذا الكلام.